قصة قصيرة

الموال الحزين

د. خليل فاضل

عار تماما كما ولدتني امي . واقف بين جدران الحمام المظلم الضيق للغاية ، المفتوح من السقف ، ذي الباب المتحرك . حمام معسكر أو معتقل او ضمن حمامات سكنى جماعية .

كان الماء يندفع من الرشاش في قوة وفي صرير ينساب على البلاط ، يتسرب في البالوعة المسدودة: انا أغوص . أحاول بخوف الابتعاد عن الماء . أتجنب بكل الجهد والقوة ، امكانية اغلاق جفني فمعنى حدوث هذا هو ضياعي .

بدأ الخوف يسيطر علي تماما . ثمة ظلال ترتمي على المكان الهادىء ، وصمت قبري يرين على المكان . كلهم نائمون ابوابهم مغلفة عليهم وكأنهم موزعون في توابيت منتظمة مغلقة عليها حجراتها .

تخلصت بسرعة من بقايا الصابون المتناثر فوق جسدي العاري . أغلقت الرشاش ، واقتنعت تماما اني قد هربت من الخوف الهائل رغم الاصطدامات المرتعشة من لقاءات دقات قلبي المضطربة بالحوائط الضيقة المستطيلة .

ارتديت ملابسي على عجل . اتخذت زينتي تماما. تقدمت قافزا فوق الدرج حتى بلغت منتهى السور المقام . فتحت الباب في هدوء . لم يقلق الشرطي النائم الحالم الغبي داخل كشكه الخشبي الملاصق للسور .

كان الشارع وقتذاك مضاءا بالمصابيح النيون . كان متسعا ونظيفا تشقه من الوسط حديقة مستطيلة متقطعة تمرق خلاله عربات اخر الليل المسرعة ، تفوح منها روائح الانكسار البشري فوق الحافة الفضية اللامعة للظلام . ظللت اسير برفق . صدري يرتج ، وذكرى الخوف الرهيب تحت المياه داخل الحمام القبري تلاحقني. بدأت من تأليف الموال الريفي الحزين (سافر حبيبي من غير وداع ...) لصوتي المشروخ ، وحلقي الملتهب اشق الفراغ مقتنعا تماما انني افضل مليون مرة من سيد البلابل وملك الكروانات ، وانني عديم الحظ ولولاه لكنت المع مغن في الاوبرا العالمية .

كانت اثار الصداع لم تزل تدغدغني في سقامة. تقلقني وتحشرج من استرسال الموال الحزين ... توقفت عن السير لدى محطة (المترو) ووقفت ارقب (سافو) وهو يرفص مبتسما فوق حافة الاعلان ، وعلى رؤوس كل الناس بالمحطة وكأنه مليك البلاد المحبوب المخلد وهذا احد تماثيله المنتشرة. مشادة عنيفة طرفاها مفتش المحطة وبعض الركاب المتذمرين يتهم فيها المفتش الشعب بانه شعب قواد وان الذين يستعجلون (المترو) عليهم ان يستعجلوا نساءهم قبلا . كان من ضمن الجمع المنتظر (منجد) وصبيانه يتبادلون النكات ويمسكون بمذياع صغير مكسور وملصق من جميع جوانبه . امرأة حبلى عيناها منتفختان ووجهها متورد تبدو عليها امارات الزيادة الهرمونية . ابن بلد سمين على اكبر احتمال انه جزار . جلبابه الابيض متسع يبدو واضحا تحته السروال . واخيرا .. أتى (المترو) متدحرجا فوق القضبان ، ثملا ، محتجا مستكينا بجوار الرصيف ، تنفتح ابوابه في ملل تستقبل الجمع القافز في سرعة . الطريق عاد ، (المترو) يسير . وعند المحطة التي لم يرها احد انحنيت على اذن السائق بكلمة السر ، فتوقف الفطار ، ومضيت انا كالشبح ... وهنا لم يلحظ الجزار سوى معاينة اللحوم البشرية المتراصة السمينة البيضاء، وتعديل سرواله الساقط . المرأة الحامل كانت منشغلة بالحديث مع زوجها عن لفائف الطفل وكيفية الولادة . (المنجد) وصبيانه كانوا غارقين في الضحك اثر نكتة بذيئة خدرتهم ولعبت برؤوسهم . كقردة عجوز شمطاء تساحق احدى بناتها بدت عربة (المترو) وهي تحتوي هذا الجمع ، وهي تتوقف دون ان يحس ، وحين كنت انا في الخارج تيقنت ان السائق ايضا لم يفهم ما قلته له ، فلقد كانت كلماتي له عادية لكنه اصاخ السمع ونفذ الامر وتمت المهمة .

تقدمت نحو قطعة الارض الخراب المنبسطة . لم يزل الظلام يلف الكون . نهايات اطراف لفافات التبغ المشتعلة تبدو كلؤلؤات رخيصة فوق بساط اسود . تقدمت اكثر نحو قطعة الارض الخراب . علمت منذ لحظات انني قد ورثتها عن جدي الذي مات منذ زمن ،

لكنها محتجزة لدى الاوقاف . تقدمت اكثر وصرت وسطهم . كانوا قطعا منحوتة من الظلام ملامحها ضائعة تماما وكانوا يكونون حلقة ناقصة . حييتهم بصوت عال فردوا في همهمة متآلفة . مضيت اتحدث واتحدث وفمي يلوك الكلمات ، ويسوق الحجج في سرعة كأنني محام بارع يدافع عن قضية قتل مع سبق الاصرار . كانت الارض الخربة ملكي . نعم لشهادة وزارة الاوقاف . لدي سندات وشهود . كانوا يستمعون في صمت وتحديقاتهم رغم حلكة الظلمة كنت احسها تخترقني وتترك فوق جلدي جروحا تدمي . حاولت جاهدا لكني لم استطع أن أتبينهم . سادت فترة صمت وجيزة رهيبة في اثرها بدأ احدهم بصوت حاد رفيع يتكلم :

هذه الارض موجودة هنا منذ زمن . ونحن ملاكها الحقيقيون بدون سندات وبدون شهود .

تلاه صوت خشن ضخم :

ـ ونحن تركناها خرابا وكان باستطاعتنا أن نبني فوقها كل ما يمكن بناؤه ، لكن لغرض سري لا يعلمه سوانا آثرنا ان تبقى خربة .

تلاه صوت متحشرج منفعل :

ـ اذا كنت تريد التحدي فقلها علنا ، ولا داعي للمحاورات .

... أعقبه صوت يجمع في نبرته كل نبرات السابقين :

ـ كن رجلا واعرب عن وجهة نظرك في قوة !!

أسقط في يدي . كانت مياه الرشاش ترتطم بوجهي في عنف ، وكنت اتحاشى امكانية اغلاق عيني وتسرب المياه والحوائط المستطيلة تداهمني تهاجمني تمزقني تهلهلني ، وانا مزق مبعثرة تحاول ان تستجمع ذاتها من خوف .

حاولت اخراج الكلمات دون تعثر . فعلا حاولت . محاولة جادة . محاولة يائسة :

ـ سأبني هنا ما سأبنيه وفيه ستكون لكم السكن والمعيشة دون اجر ...

... وكانت الضحكات الساخرة تسري بينهم ، تتواصل ، تتحد ، ترتفع .. كقهقهة واحدة محتدمة عالية تقذف في آذاني بصديد مؤلم وساخن ..

قال الصوت الجاد الرفيع :

ـ اخبرناك اننا كنا نستطيع بناءها لكننا اردناها خربة . نعم خربة .

ورددت . لم ادر بعدئذ كيف اتتني شجاعة المواجهة والسؤال .

ـ وما الحكمة في ذلك ؟!

قال الصوت الخشن الضخم :

ـ سر لا يعلمه سوانا .

كنت واثقا انه لا حيلة لدي . حقا معي الشهود والشهادات والقانون و... و ... لكن القطع المنحوتة من الظلام . ذؤاباتها الملتمعة تلسعني . تحديقاتها تطبع فوقي مقترحات متقيحة .. مؤلمة .. وحادة .

انسحبت في هدوء . بدأت بالخطو المعتاد . ثم انفرجت الخطوات . تباعدت . اضطربت . صارت عدوا . عدوا لاهثا مسرعا محدثا ايقاعا متواليا فوق الشارع المضاء بالنيون . الشارع النظيف المارقة خلاله عربات آخر الليل تئز بجانبي كسهام قبيلة آكلة لحم البشر تلاحقني .

توقفت عند محطة المترو . وتيقنت من سر بسمة (سافو) الخبيثة . كان وضعه الراقص فوق الاعلان . فوق الرؤوس بمثابة تهديد لاي تفكير جاد من ناحيتي .. بعد حين مر (المترو) من امامي ولم يقف . كان السائق يطالعني من خلال الزجاج . صرخت باعلى صوتي بكلمة السر . لكنه مضى . كان قد فهم . وانا .. ادركت الامر بكل ابعاده وحواشيه .. كان علي ان اسير . ظللت اتأرجح بجوار الارصفة ، أواصل تكملة موالي الحزين :

(سافر حبيبي من غير وداع
وسأبني تايه في قلب المدينة)

... حراس معسكرات الجيش يقفون مدججين محملقين وانا أغني .. مبتعدا عنهم تماما .. حتى انتهيت . توقفت عند الباب الحديدي . دفعته في هدوء ، لكنه احدث صوتا افزع الشرطي النائم الحالم الغبي القابع في كشكه الخشبي ، وتقدم مني يمسح عن عينيه آثار النوم . يحملق في في دهشة :

ـ سيادتك كنت فين ؟!

حقا لم اتوقع السؤال ، ففي كل مرة كنت ادخل دونما سؤال .

رددت :

ـ كنت في حفل عيد ميلاد صديق !

لم يعلق . ولم اطل النظر اليه . تقدمت حتى صرت بالحجرة المظلمة وكلهم ما زالوا نياما كجثث متساوية داخل توابيت محفوظة . مغلقة عليها حجراتها .

عار تماما كما ولدتني امي . منتصبا في وسط الحمام الضيق . مياه الرشاش تهبط في قسوة . في ايلام . في صوت مفزع . لكني في هذه المرة كنت اتعود اغلاق عيني دونما فزع ، واطلت التحديق في مساحات الحمام المستطيلة ، وتسرب المياه في البالوعة كنت قد تجرأت عليها . الامسها بقدمي الحافيتين . أنقر على الباب الخشبي في ايقاع جريء جاد متلاحم لكي استرسل في تكملة الموال الريفي الحزين :

(والصبر ما عاد ينفع ..
غير كلمة للجبان يغنيها)

القاهرة